المحور الأول:

جغرافية السكان والديموغرافيا: النشأة والتطور، المصادر والأدوات

الجزء 2

2. نشأة وتطور جغرافية السكان ومحتواها العلمي

تُعد جغرافية السكان فرعًا تخصصيًا من فروع الجغرافيا البشرية، يُعنى بدراسة التوزيع المكاني للسكان، وتحليل خصائصهم الديموغرافية والاجتماعية، وتفسير العلاقات المتبادلة بينهم وبين البيئة الجغرافية. وقد نشأت جغرافية السكان مع تطور الإحصاءات السكانية وظهور الحاجة إلى فهم أنماط النمو السكاني وتوزيعه وتأثيره على التنمية. ليتطور هذا الفرع التخصصي مع مرور الزمن ويصبح أداة أساسية لفهم المشكلات السكانية ووضع الحلول المناسبة لها باستخدام أدوات كمية ونماذج تحليلية. ويشمل محتواها اليوم مواضيع متعددة مثل التوزيع الجغرافي للسكان، الكثافة، النمو، الخصائص الديموغرافية، الهجرة، والتحولات الديموغرافية الكبرى.

1.2. نشاة وتطور جغرافية السكان

منذ القديم حتى عصر النهضة، اهتم الجغرافيون وغيرهم، بوصف المجموعات البشرية وحيزهم الترابي. وقد انصبت اهتماماتهم على معرفة المجموعات البشرية وفيزيولوجيتهم وأنشطتهم وتقاليدهم وسكنهم وتغذيتهم ولباسهم. لكن هذا الإرث المعرفي لم يتجاوز مستوى الوصف مع عدم التحقق من دقة المعلومات، خاصة فيما يتعلق بعدد السكان

ومع بزوغ عصر النهضة، ظهر توجه جديد في الدراسات الجغرافية، تمثل في استخدام أدوات وتقنيات حديثة لاستكشاف الأرض وفهم مكوناتها. وبدأ الجغرافيون يهتمون بوصف الجماعات البشرية، وتوزيعهم على سطح الأرض، مما ساهم في نشوء علم جديد يعتمد على الهندسة والقياس لتمثيل الظواهر بدقة.

ونتيجة لتراكم المعارف الجغرافية والتاريخية، برزت الحاجة إلى دراسة السكان بوصفهم عنصرًا مهمًا في فهم المناطق والمجتمعات. لكن، ورغم هذا الاهتمام، ظلت البيانات غير دقيقة، خاصة عند تقدير أعداد السكان. فعلى سبيل المثال، في نهاية القرن الثامن عشر، قدر "لمبرير" W. Lempière عدد سكان المغرب بـ 6 ملايين نسمة، بينما قدم "إركمان" J. Erkman تقديرات تتراوح بين 24 و25 مليونًا، وفي سنة 1902، قدر "L. Raynaud" العدد بين 9 و10 ملايين. هذه التقديرات المتفاوتة تعكس نقص الأدوات والمنهجيات الدقيقة. ونتيجة للإكتشافات الجديدة، تطورت أساليب جمع البيانات، وأصبح من الضروري الاعتماد على الإحصاءات الدقيقة لفهم الواقع السكاني بشكل علمي ومنهجي.

لقد كان اهتمام الجغرافيين بالسكان ثانويا، ولم تكن دراستهم سوى لدعم المواضيع المدروسة. وخلال القرن 19، تعاطت الجغرافيا لدراسة السكان في علاقتهم بالوسط الطبيعي، لكن في إطار الحتمية الجغرافية Déterminisme ، بمعنى أن الإنسان لا يتحكم في الوسط الطبيعي، وأنه مجبر على الاستقرار في مناطق معينة. ولم يدخل العنصر البشري في الحسبان إلا في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20،

بفضل تأثير الجغرافي الألماني راتزل "F. Ratzel " الذي اعتبر أول من اهتم بالسكان في الجغرافيا، أما فدال دو لبلاش"P . Vidal de la Blache " ، فقد حاول تفصيل عوامل توزيع السكان على اليابسة.

هكذا، خلال النصف الأول من القرن العشرين، أعطى الألماني هتنر "A. Hettner"، والفرنسي "فدال دو لبلاش" مكانة خاصة للعنصر البشري في علم الجغرافيا، واعتبر أن الجغرافية البشرية يجب أن تهتم بالعلاقات بين الوسط الجغرافي والإنسان، وأن لهذا الأخير الدور البارز على باقي عناصر الوسط الطبيعي، بمعنى أن للإنسان إمكانية التصرف في الطبيعة، متجاوزا بذلك فكرة الحتمية الجغرافية. ثم بدأت تظهر بعض الأبحاث حول السكان، مستفيدة من تكاثر المعطيات بفضل الإحصاءات الحديثة التي بدأت الدول المتقدمة تقوم بها. لكن الإنتاج العلمي في جغرافية السكان بقي محدودا، ووجب انتظار بداية النصف الثاني من القرن 20 لكي يحدث منعرجا حاسما لصالحها.

مع هذا التحول، بدأت النقاشات والمناظرات الدولية بين الباحثين تتزايد، وتمحورت حول مراجعة مناهج الجغرافيا وتحديد مساراتها بدقة. في هذا السياق، ظهرت العديد من الدراسات التي تناولت موضوعات متعددة مثل السكان، والاقتصاد، والصناعة، وغيرها، كما انتشرت المؤلفات العلمية في شكل كتب ودوريات ومجلات عامة ومتخصصة.

وقد أدى ذلك إلى ظهور تيارات فكرية جديدة في الجغرافيا، من بينها نظرية المركزية، ونظرية التراتبية، ونموذج الإيكولوجيا الحضرية. وبالتالي، لم يعد البحث الجغرافي مقتصراً على تحليل توزيع السكان، بل شمل أيضاً دراسة ممارسات المجموعات البشرية وتفاعلها مع المحيط. وأصبح من الضروري أن يُنظر إلى الجغرافيا كباقي العلوم الاجتماعية، مما تطلب إدماج مفاهيم جديدة وأدوات دقيقة.

وفي ظل هذه التحولات، ظهرت أبحاث جديدة حول السكان، مستفيدة من تزايد البيانات الإحصائية المتوفرة بفضل جهود الدول المتقدمة. فأصبح من الممكن تتبع تطور السكان بشكل مستمر ودقيق. إلا أن هذا الزخم في المعطيات لم يكن كافياً لتأسيس علم جغرافي مستقل، بل ظل هذا الفرع تحت التكوين، ولم يُعترف به كفرع مستقل من الجغرافيا إلا مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، عندما بدأ يظهر بشكل واضح ومحدد.

لقد شكلت خمسينيات القرن العشرين مرحلة حاسمة في تاريخ جغرافيا السكان، إذ اعتُبرت فترة تحول نوعي في مسار الجغرافيا عموماً، حيث خضعت الجغرافيا لتجديد منهجي عميق، مثلها مثل باقي العلوم الاجتماعية. وأصبحت الجغرافيا الجديدة تسعى إلى الابتعاد عن النظريات الجامدة والافتراضات المسبقة، مع إعطاء أهمية أكبر للواقع والبحث العلمي التجريبي.

وتشير معظم الدراسات السكانية الى أن الاهتمام الجدي بالسكان بدأ بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة لتزايد حجم السكان بشكل كبير بسبب ارتفاع معدلات النمو السكاني نظرا لتوفر الخدمات الطبية والرعاية الصحية، والتي بدورها انعكست على طول فترة أمد الحياة عند الميلاد التي ساهمت في ارتفاع حجم ونمو السكان وتباين كثافته المكانية بين الدول أو بين الأقاليم التابعة للدولة، كما تباين نمط وكيفية استغلال البيئة الطبيعية فأزداد عدم التوازن في مختلف المجالات. ولما كانت خريطة التوزيع الجغرافي للسكان من أهم الخرائط التي توضح العلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية والموارد الاقتصادية أخذت الجغرافية على عاتقها دراسة السكان ضمن حقل الجغرافية البشرية باعتبار السكان ظاهرة جغرافية تؤثر وتتأثر بالبيئة الطبيعية، فضلا عن كونها من أكثر الظواهر الجغرافية الأخرى تغيرا. لذلك فرضت جغرافية

السكان نفسها كعلم مستقل وذاع انتشارها وتزايد الاهتمام بها خلال الخمسينيات والستينات من القرن الماضي.

ويعد الجغرافي الأمريكي تريوارثا "trewartha " من أوائل الجغرافيين الذين نادوا بضرورة استقلالية جغرافية السكان، فقد وضح في خطابه خلال المؤتمر السنوي لأتحاد الجغرافيين الأمريكيين عام 1953 الذي كان رئيسا له مفهوم ومغزى جغرافية السكان ومحتواها، معلنا بذلك ضرورة فصلها عن الأم (الجغرافية البشرية) باعتبار السكان يشكلون المحور الأساسي التي تدور حوله معظم العلوم الإنسانية والتطبيقية، وقد كشف "تريوارثا " مضمون جغرافية السكان الذي يستند على فهم التباينات المكانية للتجمعات السكانية على سطح الارض، ولأجل الوصول إلى هذا الفهم لابد من دراسة العوامل المؤثرة بها وربطها بتلك الاختلافات المكانية .

وبعد ذلك ظهرت الكثير من الكتابات والبحوث التي تفسر مفهوم وفحوى جغرافية السكان والمشكلات المرتبطة بها، وقد أخذت هذه الكتابات تتوالى في الظهور من قبل الرواد الأوائل المهتمين بهذا الموضوع، وكانت معظمها تبحث في مفهوم جغرافية السكان ومجالات دراستها وهدفها ومدى ارتباطها بالبيئة الجغرافية .

انطلاقا من هذه الفترة انتقلت دراسة السكان في الجغرافيا من وضعية مادة مكملة للمواضيع الأساسية إلى فرع قائم بذاته ضمن مجموع الدراسات الجغرافية. وقد حصل ذلك سنة 1951، بعد نشر كتاب خصص بالكامل لدراسة السكان للجغرافي الكبير بيير جورج Pierre George تحث عنوان "مدخل للدراسات الجغرافية لسكان العالم" "Introduction à l'étude géographique de la population du monde"، الذي تبنى فيه الكاتب أهمية دراسة جميع أشكال المستوطنات البشرية وتطورها الكمي، مع التأكيد على أهمية توضيح الإختلافات المجالية للسلوكيات الديموغرافية. ومنذ ذلك التاريخ عرفت الأبحاث العلمية حول جغرافية السكان تطورا ملحوظا في شكل مؤلفات ومقالات ومداخلات في جميع أنحاء العالم.

2.2. محتوى جغرافية السكان

منذ ارتقائها إلى فرع علمي قائم بذاته، اهتمت جغرافية السكان بدراسة العلاقة القائمة بين السكان وحيزهم الجغرافي. فهي تصف أعداد السكان وبنيتهم وديناميكيتهم الطبيعية وتحركاتهم وأشكال توطنهم في المجال. وتقوم بتحليل وتفسير كل ما تلاحظه من اختلاف في الكثافات. وبالتالي، فهي تحاول فهم المجتمع من خلال العلاقة التي تربطه بمجاله الجغرافي، وذلك بدراسة ثلاث مباحث رئيسة:

- التوزيع المجالي للسكان، ويظهر التفاوت الكبير في التوطن البشري على وجه الأرض. فبعض الجهات يتركز بها السكان، والبعض الآخر فارغ تماما من السكان. ويرتبط هذا الإختلاف بعوامل طبيعية وبشرية؛
- الديناميكيات السكانية، وتعتمد فيها جغرافية السكان على علم الديموغرافيا مع التشديد على الاختلافات المجالية. فهي توظف المؤشرات الديموغرافية المتعلقة بالولادات والخصوبة والوفيات، كما تدرس تيارات الهجرة وحصيلتها لتتبع وقياس النمو السكاني. وتربط جغرافية السكان هذه المؤشرات بالمجال الجغرافي؛
- البنيات السكانية، تعتبر دراسة البنيات السكانية الاهتمام الثالث الذي تنصب عليه الدراسة الجغرافية في موضوع السكان، وتسمح بمعالجة التركيب السكاني حسب الأعمار وحسب الجنس وحسب

الفئات السوسيو-مهنية، والتنوع الثقافي والإثني، وغيرها من مضامين الحياة البشرية. ويكشف تحليل هذه البنيات عن تواجد عالمين :عالم شائخ وضعيف الإنجاب، وعالم شاب يتمتع بحيوية كبيرة في تجديد أجياله، ولكل من هذين العالمين مشاكله الديموغرافية وانشغالاته.

ويتم تحليل هذه المتغيرات على مقاييس مختلفة؛ على مستوى مدينة أو جماعة قروية أو جهة أو بلد أو قارة أو على مستوى كوكب الأرض. فالجغرافيا تنفرد بدراسة السكان في علاقتهم بالمجال مع تقييم دلالات الاختلافات بين المجتمعات. وهذا ما يميزها عن الديموغرافيا وباقي الميادين العلمية التي تهتم بدراسة السكان. فهي تعكف على دراستهم بمنظور جغرافي. وبالتالي، فالقيمة المضافة لجغرافية السكان هي أنها تأخذ بعين الاعتبار الاختلافات المجالية لكل المؤشرات السكانية المدروسة، وتحاول تفسير العوامل الكامنة وراءها.